## المحور الأول : تقوى الله

ولنبدأ بتقوى الله أولاً : ففيها جماع الخير كله ، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين وخير ما يستفيده الإنسان فى حياته وبعد مماته .

والتقوى هى مطلب الله من الإنسان المتجلى فى قوله جل وعلا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ [ آل عمران :١٠٢ ] فإذا كان المسلمون أتقياء جميعا هنالك يقوم الإسلام كله ولا يختل إسلام العبد وإيمانه إلا إذا اختلت التقوى عن قلبه، مع العلم أن تقوى كل فرد على حسب مسؤوليته ، والإخلال بجزء من التقوى التى يطالب بها فرد من الأفراد إخلال بالإسلام كله ، فإذا أراد العبد أن يرقى إلى مرتبة العباقرة فعليه بالتقوى بكل ما تحمل الكلمة من معنى لكى يسلم من أمراض الشبهات والشهوات التى طالما نَخَرَتْ أجسام الأمم فكانت سبب هلاكها.

وقد أشاد الحق سبحانه وتعالى بالعباقرة من عباده ، والأئمة من أوليائه لما سلموا من هاته الأمراض فقال سبحانه : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤ ] ؛ إذ بالصبر يحكم الإنسان شهوته ، وباليقين يكسر ظهر الشبهات،وبالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين (١) .

قال القشيرى رحمه الله:«من صبر فى الله على قضاء الله عوضه الله صحبة أوليائه،هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه،فجعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكا وأتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين من أنواع الإكرام والإنعام من فلق البحر،وتظليل الغمام،وإنزال المن والسلوى ونحوها » التقوى فيها جماع الخير كله،وهى ملكه ينبع عنها سلوك يستمد طاقته من القلب،يقول رسول اللهﷺ:« التقوى هاهنا » وأشار إلى صدره ويقول عليه الصلاة والسلام:« إن فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله،وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» .

(١) انظر: مدارج السالكين ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية .

فالطريق إلى التقوى يصلح القلب ،وصلاح القلب تصلح به الأعمال ، وكلما صلحت الأعمال ازداد القلب صلاحا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [ الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ ] .

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبى بن كعب عن التقوى فقال : « هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ فقال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال :تشمرت وحذرت ، قال فذاك التقوى » .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقيل لأبى الدرداء : إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء فقال :

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أراد
يقول ابن أدم فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفاد

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يوما لابن أخيه : يا بن أخى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ، قال:لا خير فيهم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يا بن أخى ترى الناس ما أكثرهم قلت:بلى ، قال :«لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم ».

## * من هم المتقون ؟

لقد عرف الله عز وجل المتقين وبين صفاتهم فى مواطن من كتابه نذكر منها قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ**

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [ آل عمران : ١٥ ـ ١٧ ] ،ويقول سبحانه فى سورة الذاريات: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩ ] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف : ٢٠١ ] .

ونفهم من مجموع هذه الآيات وغيرها أن المتقين لا سلطان للشيطان عليهم قد نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات، إذا قالوا قالوا لله، وإذا عملوا عملوا لله ، يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويزنون أنفسهم قبل أن توزن يوم توضع الموازين القسط ليوم القيامة أعمالهم .

ويكفى حجة أن العبودية التى هى أشرف مقامات الإنسان فى علاقته مع ربه تتمثل فى التقوى ، وأن الله تعالى وصف رسوله ﷺ بأشرف الصفات ومما وصفه به عبوديته لله فى كثير من الآيات منها قوله سبحانه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [ الكهف :١ ]وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء:١] وقوله ﷺ : « والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له » .

فالتقوى إذن هدف عام بعث من أجله الرسل، وكانت من أجله التشريعات والأوامر والوصايا ، فإن وُجِدَت التقوى فى قلب بشر لم يجنح بعد إلى رقيب أو حسيب وفى هذا يقول الناظم :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفى عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهبًا وأن غدا للناظرين قريب

فتقوى التقى حاجز له عن كل شر، دافعة له إلى كل خير، ولذلك نجد أوامر الرسل كلها منصبة عليها وعلى طاعتهم إذ لا تعرف التقوى بدونها، فنوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى قالوا لقومهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٠٨] ومحمد ﷺ أمره الله بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [ آل عمران :١٠٢ ] .

فالتقوى هى مقياس القرب من الله والبعد عنه : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [ الحجرات :١٣ ] وهى خير زاد يتزوده الإنسان فى الدنيا ليلقى الله وهو عنه راض ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [ البقرة : ١٩٧ ] .

وخير لباس يزين الإنسان فى الدنيا لباس التقوى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [ الاعراف : ٤٦] وبها ينال العبد الأمن فى الدنيا والآخرة : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [ يونس : ٦٢، ٦٣ ] .

ولا يقبل الله عملا بدون تقوى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ ] والقرآن لا يهتدى بهديه إلا المتقون : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢ ] ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ آل عمران: ١٣٨ ] وكل تأسيس على غير تقوى من الله مآله السقوط : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [ التوبة : ١٠٩ ] .

والرخاء الاقتصادى معلق على التقوى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [ الأعراف :٩٦ ] ، ونصرة الله وتأييده وصحبته إنما يعطيها للمتقين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [ النحل : ١٢٨ ] ، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣ ] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤ ] .

والرزق الحسن والخروج من كل ضيق موعود بهما المتقون ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [ الطلاق : ٢ ، ٣ ] .

والفرقان الذى به يعرف الإنسان الحق فلا يلتبس عليه ، والباطل فلا يخدع به وعد به المتقون : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٩ ].

وبالتقوى تتيسر الأمور : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق:٤]

وأخيرا بالتقوى ينال العبد رضى الله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [ الحج :٣٧ ] .

فالتقوى أفضل ما استفاد به المرء ، وأعظم نعمة يؤتاها ، وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما استفاد المرء بعد تقوى الله خير من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته،وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » .

إنها حساسية فى الضمير وشفافية فى الشعور،وخشية مستمرة،وحذر دائم ، وتوق لأشواك الطريق،طريق الحياة . . الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامع والمطامح،وأشواك المخاوف والهواجس،وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء،والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرا . . . وعشرات غيرها من الأشواك (١) ، إذا سكنت قلبا صار سليما خالصا ، يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة أو تستهويه شهوة فعندئذ ينهل من معين القرآن الذى لا ينضب وإنه لكتاب عزيز لا يتفتح عن أسراره وأنواره إلا للذى جاء إليه متقيا خائفا ، حساسا ، مهيأ للتلقى .

إنها صفة المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [ البقرة : ٣ ـ ٥ ] والذن يتقون الشرك والشبهات ، ويعملون بطاعة الله،ويحذرون من عقوبته فى ترك ما يعرفون من البينات والهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به . اتقوا ما حرم الله عليهم ،وأدوا ما افترض عليهم ، وتركوا ما لا بأس به حذرا مما به بأس لقوله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » (٢) ولا يبلغ العبد مرتبة العباقرة ما لم يكن للمتقين إماما أى قدوة يقتدى به فى الخير،وأسوة فى التقوى ، وفى الموطأ : « إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم » .

---

(١) فى ظلال القرآن ١/ ٣٩ .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول فى دعائه: « اللهم اجعلنا من أئمة المتقين » وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[ الفرقان : ٧٤ ] قال ابن عباس: «اجعلنا أئمة هدى» ، وقال إبراهيم النخعى: « لم يطلبوا الرئاسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين » وكان القشيرى القاسم شيخ الصوفية يقول : « الإمامة بالدعاء لا بالدعوى» يعنى بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدعيه كل أحد لنفسه،وقال مكحول : « اجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون » .

فالأتقياء هم ذوو المواهب والخصائص الذاتية،العاملين على توثيق الصلة بالله والتقرب إليه بالعبادة تمهيدا لحمل زمام القيادة والتوجيه فى عالمهم فى تعديل مسار البشرية،وقد سبق أصحاب رسول الله ﷺ غاية السبق حتى سموا السابقين بإطلاق، ونزل مدحهم والثناء عليهم فى مواضع من كتاب الله،ورفع الرسول ﷺ من أقدارهم وجعلهم فى الدين أئمة فكانوا هم القدوة العظمى فى أهل الشريعة مما لا شك أنهم نزلوا من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيرهم،وحازوا فيها سبقا لا يقدر قدره ، فشهد الله لهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [ التوبة : ١٠٠ ] إنهم تربوا على عين النبى ﷺ ، وتوجيهه ، فكان يراعى الخصائص الذاتية لكل فرد منهم ، ولا يسعى إلى تربيتهم على نمط واحد ، وإنما يكونهم بما يناسب مواهبهم ، وشخصياتهم على اختلافها ، فكان جوابه يختلف كلما سئل:« أى الأعمال أفضل؟» مراعيا بذلك حال السائل وطبيعته فيجيب مرة بقوله: « أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده ثم الجهاد » (١) إلى آخر الحديث ،ويجيب مرة أخرى بقوله: «أفضل الأعمال الصلاة فى وقتها » (٢) ، وكذلك أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن السرور (٣) الحديث .

وينظر إلى عبد الله بن عمر فيرى فيه أهلية لصلاة الليل فيقول فيه :«نعم

(١) رواه الطبرانى وابن حبان وأحمد وصححه الألبانى فى ( ص ، ج ، ص ) ١٠٩١ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى فى ( ص ، ج ، ص ) ١٠٩٣ .
(٣) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى وابن عدى فى الكامل وحسنه الألبانى فى (ص،ج،ح) ١٠٩٦ .

الرجل عبد الله لو كان يصلى الليل » [ متفق عليه ] .

ويقول ﷺ :« أرحم الناس بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » (١) .

وفعلا سبقوا غاية السبق فى مكة والمدينة ليلحق بهم فى ذلك السبق من شاء الله من الأنصار،فالعبقرية القيادية لم نرها فى الغالب العام إلا فى شخصيات المهاجرين السابقين فهم الخلفاء الراشدون ، وهم الفقهاء المعلمون ، والمستنبطون المجتهدون وكيف لا وقد ابتلوا فصبروا وما يئسوا. . قال الإمام أحمد: حدثنا معمر ابن بشر عن عبد الله بن المبارك . . . حدثنى عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ، ثم أقبل إليه فقال:« ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ، لقد بعث الله النبى ﷺ على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية ،ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده،إذ كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار »(٢) .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان الحاكم والبيهقى وصححه الألباني فى (ص ، ج ، ص ) ٨٩٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣١٨قال ابن كثير إسناد صحيح .

وقال محمد بن إسحاق بن محمد بن كعب القرظى: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يابن أخى ، قال: وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد : قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا ، قال حذيفة رضي الله عنه : يابن أخى والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله هويا من الليل ثم التفت فقال :« من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشترط له النبى أن يرجع - أدخله الله الجنة » قال: فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال :« من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ - يشترط رسول الله الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ﷺ فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال ﷺ: « يا حذيفة: اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا» قال حذيفة: فدخلت فى القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل ، ولا تقر لهم قدر ولا نار ولا بناء . . . » (١) .

وقال قتادة عن غزوة تبوك : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما،وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليهاثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم » (٢) .

وقال ابن جرير : عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٨ .

الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا. فقال ﷺ : « تحب ذلك ؟ » قال: نعم ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(١).

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [ البقرة : ٢١٤ ] .

فالعبقرية القيادية لا تكون إلا من هؤلاء وأمثالهم ،ولذلك لما اختلف المهاجرون والأنصار حول خلافة الرسول ﷺ بُعَيْد وفاته قال أبو بكر الصديق وهو يعلم ما يقول : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » (٢).

« أنتم إخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى دين الله، وأحب الناس إلينا : فأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لفضيلة إخوانكم ،وأن لا تحسدوهم على خير » (٣) .

هذه العبقرية نراها مستمرة مادامت السموات والأرض حتى لا يبقى على الأرض من يقول لا إله إلا الله .

نراها ممثلة فى أبناء الصحابة وعلى رأسهم العبادلة الأربعة: عبد الله بن عمر الذى قيل عنه : كان لعمر بن الخطاب فى زمانه نظراء، وكان عبد الله فى زمانه ليس له نظير، وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والحسن والحسين الذين قاموا للخلفاء الملوك وقد حادوا عن نهج الخلفاء الراشدين ، ثم حمل مشعل القيادة التابعون وعلى رأسهم سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . . . ثم تابعو التابعين من الأئمة الأعلام، والهداة المهتدين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين « فمدارس الفقه الإسلامى والتفسير والتشريع والقضاء ومعظم الأصول العلمية للدولة الإسلامية إنما أسسها المهاجرون الأرقميون

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٩ .
(٢) صحيح البخارى كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ( ٣٦٦٨ ).
(٣) فتح البارى ٧/ ٣١ .

خاصة بدءا بالخلفاء الراشدين وانتهاء بالشخصيات الأرقمية الأخرى الذين صاروا أئمة فكانوا هم القدوة العظمى فى أهل الشريعة، وتربى على أيديهم طلاب انكبوا على فقه الدعوة يتدارسونه ويكتشفونه من مظانه العلمية والتجريبية، وكانوا أهل نزوع إلى الجد يترجمون بصمت ما فى ثنايا فقه الدعوة من اقتراحات إلى ارتباطات وعلاقات وخطط واقعية، فتخرجت على أيديهم مجموعة قيادية من المؤمنين ذات تأثير متكامل فى جميع الاختصاصات وكل الميادين يؤمهم رجل جامع للخصال، شامل الاهتمام » (١) ، فتركوا الأثر المحمود تطبعه أقدامهم مع الركب السائر . لا يتأخرون عن المسير مع القافلة ،ولا يسبقهم من سبق وقد جد الرعيل فى الرحيل ، وإن المتأخر فى الالتحاق متأخر فى الفضل . قال الله عز وجل : ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾ [ الحديد : ١٠ ] ،وقال سبحانه : ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء : ٩٥، ٩٦ ] .

**وصدق القائل حين قال :**

فخذ لك زادين مـــن سيرة ومن عمل صالح يـــدخر
وكن فى الطريق عفيف الخطى شريف السماع كريم النظر
وكـــن رجلا إن أتوا بعـــده يقـــولون : مر وهذا الأثر

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [ يس : ١٢ ] .

وللناس فى الماضى بصائر يهتدى عليهن غاو أو يسير رشيـــد

هذه هى التجارب، بصائر هادية، تهبك الاتزان إذا أوقعتك الغفلة فى غواية،

(١) التوحيد والوساطة فى التربية الدعوية « كتاب الأمة » لمؤلفه فريد الأنصارى .

وترسم لك الطريق إذا أردت الصعود، ومن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ الصديقية بسهم وافر (١) ، وعبودية المراغمة لا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه أغاظته له (٢) .

إنها تقوى الله تعالى التى إن تمكنت من شغاف القلوب تجعل المستحيل ممكنا، من أجل ذلك أمر الله بها فقال : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [ البقرة :١٩٧ ]، إنها تقوى الله تدفع أصحابها إلى العطاء الدائم والتضحية المستمرة ، فانظر كيف هى حية أعمالهم وإن سجنوا ، وكيف أنها تقودُ الناس أفكارهم وإن قتلوا : ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ [البقرة :١٩٨ ] .

فعلى السالك طريق العبقرية أن ينسى نفسه ويذكر ربه ، ويبذل جهده ليظهر الإسلام على حقيقته كما أنزله الله ، يتجافى عن طيب الرقاد ، ولذيذ العيش ليعرف هذا الدين ، فيظهر للعالم كما يجب أن يظهر .

إذا ذكر ربه دنت نفحة من نفحات التجليات الإلهية من مكنون نفسه فيبدو الشوق ظاهرا، ويشرق القلب لماح المُحَيَّا، وضَّاح الأسارير، فينشغل المؤمن به عن نفسه ويحيا له لأنه نعيم الحب والأنس والحياة، وما أراد الله بعبده خيرا فأوصله إلى هذا النور، إلا وصار العبد خيرا كله لدينه وأمته ونفسه والناس جميعا، وأكرمه الله بما أكرم به أولياءه وأصفياءه ومنحه قلبا جمع بين الشدة التى لا تشوبها القسوة، والرفق الذى لا يشوبه الضعف، والحكمة التى لا يؤتاها إلا ملهم، وحسن البصيرة فيعرف النتيجة قبل المقدمات، ويقف عند الحق ولو خالف رأيه، ولا يزدهيه مدح ، ولا يستثيره نقد، يعرف ما يرفع شأن الإنسان فيلتزمه ، وما يحط من قدره فيجتنبه، يرتفع بالأولى، وينجو بالثانية، لا يظن أن قطار الحياة قد فاته، أو أن الفرصة قد أفلتت من يديه، حتى ولو غاب القطار عن أنظاره، فقد يحدث ما يعطله وهناك يدركه المسافر الماهر ، فما هى بالفرصة الوحيدة، ولكنها فرص وفرص ، والعاقل الأريب إن فاتته فرصة تربص واستعد لأخرى (٣) نادما على ما فات وضاع محتسبا

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢٦ .
(٢) مدارج السالكين ١/ ٢٢٦ .
(٣) انظر : شهيد المحراب .

أجره عند ربه ، ومن فوض إلى الله أمره كفاه ما أهمه ، ومن اتقى الله وجانب المعاصى وتوكل عليه فله فيما يطلبه فى الآخرة من ثوابه كفاية وأما فى دنياه فقد لا ينال من متاعها شيئا فقد يقتل أو يصاب .

والله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [ الطلاق :٢-٣] ، ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [ التغابن :١١ ] ، ﴿ **إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم** ﴾ [ التغابن :١٧ ] ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [ آل عمران : ١٠١ ] (١) .

وروى الحسن عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ :« من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » وعن أبى ذر أنه قال : قال رسول الله ﷺ :« إنى لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ، ثم تلا : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وإنها لأكبر آية فى القرآن فرجا » (٢) .

وروى أحمد عن ثوبان أن النبى ﷺ قال :« إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » (٣) .

فمن اتقى الله وآثر الحلال والتصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ،ورزقه من حيث لا يحتسب (٤) ومن كلام محمد الجواد: ( لو كانت السموات والأرض رتقا على عبد ثم اتقى الله تعالى لجعل الله له منها مخرجا . . .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٧ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٣٨٠ .

(٣)رواه النسائى وابن ماجه وأحمد من حديث سفيان الثورى .

(٤) قاله الزجاج انظر : الجامع لأحكام القرآن .

ومن وثق بالله وتوكل على الله نجاه الله من كل سوء ،وحرز من كل عدو، والعلم كنز، والصمت نور ، وغاية الزهد الورع، ولا هدم للدين مثل البدع ، ولا أفسد للرجال مثل الطمع ، وبالراعى تصلح الرعية ، وبالدعاء تصرف البلية ،ومن ركب مركب الحق اهتدى إلى مضمار النصر، ومن غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى ) (١) .

ومن كلام الإمام جعفر الصادق :« عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [ آل عمران: ١٧٣ ] فإن الله يعقبها بقوله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [ آل عمران: ١٧٤ ] ، وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] فإن الله يعقبها بقوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] .

وعجبت لمن يمكر به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر : ٤٤ ] فإن الله يعقبها بقوله : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ [ غافر :٤٥]، وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩ ] فإنى سمعت الله يعقبها بقوله : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [ الكهف : ٣٩ ـ ٤٠ ] .

وأنا أعجب ممن تصيبه مصيبة كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [ البقرة : ١٥٦ ] فإن الله يعقبها بقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [ البقرة : ١٥٧] وأعجب ممن يمسه الضر كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٨٣ ] فإن الله يعقبها بقوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤ ] .

وأعجب ممن يتفكر فى خلق السموات والأرض ويذكر الله تعالى كيف لا يستعيذ من ناره ويسأله جنته،والثبات على الطريق الموصل إلى رحمته لأن الله

(١) نور الأنصار .

تعالى يقول : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [ آل عمران: ١٩٥ ].

عن جابر بن عبد الله أن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال : إن العدو أسر ابنى وجزعت الأم، ما تأمرنى ؟ فقال عليه السلام : « اتق الله واصبر وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله» ، فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله ﷺ أمرنى وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالت : نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان ، فغفل العدو عن ابنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهى أربعة آلاف شاة ، فأنزل الله تعالى قوله :﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣ ] وجعل النبى ﷺ تلك الأغنام له (١) .

وإن تعجب عن الغافلين عن ذكر الله فى ساعة الكرب فإن أشد العجب فى الغافلين عن سنن الله تعالى فى خلقه، تراهم يجاهرون الله بالمعاصى التى جاهرت بها أمم قبلهم فأهلكهم الله ،كيف يغفلون عن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود : ٨٢ ، ٨٣ ].

فالسنن التى ألحقت النقص والفساد والهلاك بالأمم السابقة إذا توفرت ألحقت الفساد بتدين الأمم المسلمة والهلاك بالشخصية العبقرية ،وإن القصص التى يذكرها القرآن لفساد التدين وضياع التقوى دليل على نفاذ السنن ومضيها فى البشر أينما كانوا وحيثما كانوا ومهما كانت عقائدهم الأصلية ومواهبهم الذاتية لأن الله تعالى لا يحابى أحدا. إن بيان علل تدنى الأمم السابقة ـ كما ورد فى القرآن ـ وما خضعت له من سنن لابد من استيعابها لتصبح ثقافة شاملة لأبناء الرسالة الخاتمة فيأخذوا حذرهم،ويتحققوا بالاعتبار والوقاية والهداية ، واللبيب من يتعظ بغيره كما أن بيان تفوق الأمم وما احترمته من سنن لابد من معرفتها واتباع أحسنها

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٠٦ .

لتصبح نورا يقتبس منه السالكون طريق العبقرية قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨ ] على المسلم إذن أن يكون دائم الفكر ، مستفيدا مما يقرأ،ليكون صورة حية لما يروقه من القراءات ، فيكون الوقت الذى أنفقه فى القراءة قد أثمر ولم يذهب سدى ، فإن المؤمن مسؤول عن عمره فيما أنفقه ، والمرء ما حاول أن يتعلم فمستطيع أن يتعلم من المهد إلى اللحد ، فالعلم فى النهاية يعنى امتلاك القدرة على التعلم دائما .

المسلم يقوم بواجبه فى حدود استطاعته لأنه يعلم أن الله تكفل برزقه وكفاه هم التفكير فيه،وملأ عليه كل شىء بركة، وكم من غنى حياته القلق والشقاء ، وكم من فقير حياته الطمأنينة والرضاء،فالرزق والأجل شيئان قد تكفل بهما صاحب الأمر عز وجل،فلا يتغيران بزيادة أو نقصان،يقول الله فى بعض الكتب الإلهية القديمة:« ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى،فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » .

أما الناس بقضهم وقضيضهم فأعجز من أن يضروك أو ينفعوك،وأفلس من أن يفقروك أو يغنوك لأن الله تعالى يقول :﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [ يونس : ١٠٧ ] .

وفى مثل هذا المجال يقول الزاهد الورع ابن عطاء الله السكندرى:« اجتهادك فيما ضمن لك،وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة فيك » وصدق رسول الله ﷺ عندما قال فيما رواه عن ربه :«ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » (١) ويقول عليه الصلاة والسلام : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه،وجمع عليه شمله،وأتته الدنيا وهى راغمة،ومن كانت الدنيا همه جعل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد .

فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له » وزاد فى رواية :« فلا يمسى إلا فقيرا ولا يصبح إلا فقيرا ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالوُد والرحمة،وكان الله بكل خير إليه أسرع».

المؤمن بين يومين لا ثالث لهما : يوم لم يُقدَّر فيه انتهاء أجله ، وهذا يوم مضمون السلامة وإذا ضمن المؤمن سلامته فلماذا يخاف ؟

ويوم انتهى فيه أجله فأين منه الهرب ؟ ولماذا لا نلقى الله فى هذا اليوم كراما ناضرين :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

لماذا تخاف الموت والأجل أمنع حصن للإنسان إذا خيف الردى ؟ لماذا نمالئ الناس على الحق ونجاملهم؟ لماذا لا نصارح المُعوَجَّ والآثم والفاسق والظالم بما فيهم لعلهم يرعوون إلى الحق ؟ يقول الرسول ﷺ:« إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم فقد تُودِّع منها»(١) أى فقد تعرضت للضياع وحق لها الوداع .

إن التزلف للظلمة جرم لا يرضاه الله ، والتملق لهم ومجاملتهم نفاق مقيت فقد قال رسول الله ﷺ : « إذا مدح الفاسق اهتز العرش وغضب الرب » (٢) فما الذى يحملنا على إغضاب الرب وما لنا من دونه من دافع ؟

واجب علينا أن نصارح بما نؤمن به من حق حتى ولو كره الناس ، نقوله بحكمة،وموعظة حسنة وثبات ثم لا يحزننا بعد ذلك انصرافهم عنا وإيذاؤهم لنا ، ولا نقنط إذا شددوا النكير لأن الحق يقال ابتغاء مرضاة الله لا طلبا لرضاء الناس ، وتمثل قوله القائل :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

(١) رواه الأمام أحمد .
(٢) رواه ابن أبى الدنيا وصاحب الإصابة .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنعام : ٣٥، ٣٦ ] .

إن نجاح الداعية العبقرى المصلح لا يسمى نجاحا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد ، أو لم يتعد الجيل الذى يعيش فيه ، ولكن متى ينجح ؟ ينجح عندما يقدم المثل الرائع فى المواقف الخطيرة ، فيحيا للإسلام لأنه خلق بفطرته له ، فإذا ذهب إلى جوار ربه بقيت الدعوة بعد ذهابه مستمرة لأنه بعيد النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيل إلى أناس أنه طائش .

فهذا شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله يعطى هذا المثل الرائع فى الثبات على الحق والشهادة فى سبيل الله ، لقد طلب منه أن يكتب كلمة بخط يده مفادها أنه عميل الولايات المتحدة الأمريكية ويفرج عنه لكنه رفض وهو أمام المشنقة ، وطلبت منه أخته الاعتراف من باب الخلاص والحياة فقال لها : «إن هذا الأصبع الذى يوحد الله لا يقر على باطل ، ولو كنت عميلا لاعترفت بذلك ولكنى عميل لله رب العالمين لا شريك له » .

إن الشهادة خُلقت ليعجب الناس بها ، ويتطلعوا لأصحابها ؛ لأن بها يتجاوز الإنسان نفسه فى سبيل مبدأ الحق وقد صدق من قال : « أبالموت تخوفنى ما أدرى ما أقول لك . . . » ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وخالف مثبورا وفارق مجرما
إن عشت فلم أندم وإن مت لم ألم ... كفى بك ذلا أن تعيش وتُرغما

إن الإقدام على الشهادة فى سبيل الله عملية فذة لا يقدم عليها إلا رجال خلقوا لأمثالها ، فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها عملية تعلو على حكم الواقع القريب لتسمو إلى الملكوت الأعلى وتدَوَّنَ فى عالم الخلود . . . إنها

ليست صفقة مساوم من مساومى التجارة ، ولا ضربة مغامر من مغامرى السياسة، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه،ولكنها وسيلة من باع نفسه لله وحده بمبدأ وهو مؤمن به ، ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره فإن قبلته الدنيا قبلها ،وإن لم تقبله قارعها بالسيف والحجة البالغة،فتنتهى المعركة بموته أو بموت الحياة،ولعل فوزه بالموت أشهى إليه من الدنيا وما عليها،ولنترك الاسترسال فى هذا الموضوع فالحديث ذو شجون وسوف أتعرض له فى محور ( القدوة الحسنة ).

فالمسلم عامل فى سبيل الله لا يزيد فى قدره أن يعرفه الناس ، ولا ينقص منه ألا يعرفه الناس ، فالعبرة بالعمل لله وحده والإخلاص له فى الغيب والشهادة، وأقدار الناس فى الواقع عند الله لا عند المخلوق : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره » (١) ، هذا هو الذى يجب أن نعيه لنعمل به إذا ما عنانا تقييم الناس ، والحق أن يكون تقييم المسلم على قدر ما يقدم المسلم للإسلام والمسلمين من أعمال جليلة .

جاء النعمان بن مقرن ، فسأله عمر بن الخطاب عن الشهداء ، فقال :« قتل فلان وفلان وفلان وآخرون لا نعرفهم ، فقال عمر : « ولكن الله يعرفهم » والمؤمن راض بما قسم الله له من رزق لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق ، وبحكمته فيما وزع من مواهب ، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ . فالإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا ولا يكاد يشبع منها أو يرتوى ، وقد صور ذلك الحديث النبوى :« لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » (٢) فكان للتقوى أن تهديه إلى الاعتدال فى السعى للغنى والإجمال فى الطلب وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته ، وتمنحه السكينة التى هى سر السعادة ، وتجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معاً ، ومن ثم قال النبى ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأجملوا فى

(١) حديث نبوى .
(٢) رواه البخارى .

الطلب فإن نفسا لـن تموت حتى تستوفى أجلها ورزقها ، وإن أبطـأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » .

ولو ترك الإنسان بدون تقوى يستسلم لنزعات حرصه وطمـعه لأصبح خطرا على نفسه وجماعته . فكان لابد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع ، ومعان أخلد ورزق أبقى ، وتلك وظيفة التقوى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [ طه : ١٣١ ] ، وظيفة التقوى أن تحد من سـورة الحرص والطمع وطغيان الشـراهة والجشع على النفس البشـرية فلا تستبـد بها وأن توجه نفوس السـالكين طريق العبقرية إلى القـيم المعنوية الخالدة ، وإلى الدار الآخرة الباقية ، وإلى الأنس بالحى الذى لا يموت (١) .

فالمؤمن إذًا صاحِبُ مبدأ ورسالة لسان حـاله يقول ما قال الشافعى رحمه الله :

أنا إن عـشت لست أعـدم قـوتا ... وإذا مت لسـت أعـدم قـبرا
همـتى هـمـة الملـوك ونفسى ... نفس حـر ترى المذلـة كـفـرا
وإذا مـا قنعت بالـقـوت عـمـرى ... فلمـاذا أخـاف زيدًا وعـمـرا ؟

ورحم الله القائل :

أرى الدنيـا لمن هـى فى يـديه ... هـمـومـا كلمـا كـثـرت لـديـه
تهين المـكرمين لهـا بصـغـر ... وتكـرم كل من هـانت عليـه
إذا اسـتـغنيت عن شىء فـدعـه ... وخـذ مـا أنت مـحـتاج إلـيـه

إن الناس يخافـون من أشياء كـثيرة،وأمـور شتى، ولكن عـبقرى زمـانه سد أبواب الخوف كلهـا، فلم يعد يخـاف إلا الله وحده ، يخـاف أن يكون فرط فى حقه ، أو اعتدى على خلقه .

أما الناس فلا يخـافهم لأنهم لا يملكون له ضرا ولا نفعا ولا مـوتا ولا حياة ولا نشورا .

---

(١) الإيمان والحياة للقرضاوى .

لما دعا أبو الأنبياء إبراهيم إلى توحيد الله وتحطيم الأصنام خوفه قومه من آلهتهم التى دعا إلى نبذها فقال لهم متعجبا: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام :٨١ ]وقد عقب الله على ذلك حاكما بين الفريقين فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الأنعام : ٨٢ ] فالتقوى والإيمان هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة . وبالتالى فعكسهما أعظم أسباب الخوف والاضطراب والرعب . وصدق الله إذ قال : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [ آل عمران :١٥١ ] .

ولذلك قال الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرى الموت على الحقيقة،ولا يعلم إلى أين تصير نفسه،أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وإن العالم سيبقى موجودا وليس هو بموجود فيه. . .أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدرى على أى شىء يقدم عليه بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات،وهذه كلها ظنون لا حقيقة لها. . »(١) .

أما المؤمن فهو مطمئن إلى أن الله لن يهلكه جوعا وهو الذى يطعم الطير فى وكناتها ، والسباع فى فلواتها ، والأسماك فى بحارها والديدان فى وديانها :﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [ هود : ٦ ] .

ولقد كان المؤمن يذهب إلى ميدان الجهاد حاملا رأسه على عاتقه متمنيا الموت فى سبيل الله ومن خلفه ذرية ضعاف وأفراخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ، ولكنه موقن أنه يتركهم فى رعاية رب كريم وهو أبر بهم وأحنى عليهم منه .

ولذلك لما هدد الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير بالقتل قال : « لو علمت أن الموت والحياة فى يدك ما عبدت إلها غيرك » .

(١) الإيمان والحياة للقرضاوي .

فالمؤمن لا يخاف الموت لأن متاع الدنيا أهون عنده من أن يأسى على فراقه بالموت ، كيف والموت قنطرته إلى المتاع الباقى والنعيم السرمدى ؟ ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء :٧٧ ] .

فالموت ليس عدما محضا ، ولا فناء صرفا ، وإنما انتقال من حياة إلى حياة ومن طور إلى طور ، وفى الأثر : « إنكم خلقتم للأبد وإنما تنقلون من دار إلى دار » (١) .

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

وقال جلال الدين الرومى فى بيان الموت وحكمة فناء الأجساد قبل حياة الخلود والبقاء:« إن العمران لا يكون إلا بعد الخراب،وإن الكنز الثمين لا يعثر عليه إلا بعد حفر الأرض وإثارتها،فإذا رأيت بيتا يهدم ويخرب فاعلم أن هناك تصميما جديدا وبناء جديدا،وإنما خرب البيت ليستخرج منه الكنز الدفين وتعمره عمارة جديدة . . . إن الشجرة لا تعطى الأثمار حتى تتفتح وتسقط الأزهار، كذلك الروح لا تقوى ولا تجدُّ ولا تلبس كسوة جديدة قشيبة حتى يتهدم الجسم الفانى ويخلع العمر البالى . . . إن الله - وهو الجواد المطلق - لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطى نعمة أكبر منها ، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة التى لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية ، إلا ويعطى حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل»(٢).

وقال يحيى بن معاذ :« لا يكره لقاء الموت إلا مريب فهو الذى يقرب الحبيب من الحبيب » .

وقيل لأعرابى اشتد مرضه:إنك ستموت،فقال:وإلى أين يذهب بى بعد الموت؟قالوا:إلى الله،فقال:ويحكم وكيف أخاف الذهابَ إلى من لا أرى الخير إلا من عنده ؟ .

أحسب أن طريق التقوى اتضحت وجهته واستبانت معالمه ، إنه طريق واضح

(١ ، ٢) الإيمان والحياة للقرضاوى .

بين سهل على من سهله الله عليه ، يتعين على السالك طريق الله أن يسلكه ، ولا خيار له فى ذلك ، إنه ليس مجرد شعار يرفع ، إنه أسلوب حياة متكامل يخط آثاره فى الحياة كلها ،ويصبغها بصبغة ربانية فى الأفكار والمفاهيم والعواطف والمشاعر والأخلاق والعادات والنظم والقوانين : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [ البقرة :١٣٨ ] .

obeikandl.com